مركز تكامل للدراسات والأبحاث

دراسات محكمة

الحزن مابعد الاستعماري

حينما يتجاوز الخيال السياسي في الأدب السرديات الكبرى

سفيان جرضان

باحث في القانون الدستوري والعلوم السياسية.

محمد جرضان

باحث في الدراسات الإنجليزية، مختص في الأدب التحرري والدراسات الاستشر اقية.

06 مايو 2026

ALL RIGHTS RESERVED

جميع الحقوق محفوظة

ملخص

عندما تغتال ذوات "الغير" من قبل "الآخر"، بسبب ثقة المهيمن بامتلاكه الحق في قولبة العالم لما يحوزه من أدوات صلبة وناعمة، يُهمّش "الآخر"، وتتمظهر محنته في الخضوع. حينها، يغور في أعماقه، متسائلا عمّا غبر واندثر وما تبقّى من ذاتيته، وحينما تتاح له الفرصة لتنكيء جراحه، يُقدِم على ردّ فعل يعجز الواقع عن إدراكه أو استيعابه. ليس للعقل ولا للمعرفة أفكارا مثالية كما تصوّرها روّاد الحداثة، بل هي تراكيب اجتماعية لا تتأسس على منطق قابل للتعميم. ومن هذا المنطلق، توظّف هذه الورقة أطروحة ما بعد الحداثة في دحض فكرة "السرديات الكبرى"، وفق منطق محاكاة السياسة بالأدب، من خلال دراسة حالة رواية "السبت" لماك إيوان كنموذج، حيث يلتقي الخيال السياسي بالأدب لتقديم رؤية حول تجربة الصدمة التي خلّفتها أحداث 11 سبتمبر، والحرب التي شنتها الولايات المتحدة ضد الإرهاب، داخل الوعي الثقافي المشبع بالسرديات الكبرى، وهو وعي أنتج حالة نفسية عبّر عنها في ما بات يعرف بـ"الحزن ما بعد الاستعماري". كما تسعى الورقة أيضا إلى بيان كيف يمكن للأدب أن ينتج جسرا للتفاوض والتوافق والأخلاق للتعاطف في شأن السياسة، دون الوقوع في فخ الرفض السلبي للآخر.

الكلمات المفتاح: الحداثة، ما بعد الحداثة، ما بعد الاستعمار، السلطة، المعرفة.

Abstract

When the "self" is assassinated by the "other," due to the dominant power's conviction that it possesses the right to reshape the world- backed by its arsenal of both hard and soft tools- the "other" is marginalized, and its plight becomes manifest in submission. At that point, the self retreats inward, questioning what has faded and vanished, and what remains of its identity. When the opportunity arises to reopen its wounds, it responds with an action that reality is incapable of grasping or comprehending.

Reason and knowledge no longer hold the idealistic notions imagined by the pioneers of modernity; rather, they are social constructs that do not rest upon any universally applicable logic.

From this standpoint, the paper draws on postmodern theory to deconstruct the notion of "grand narratives," by simulating politics through literature. It does so through a case study of Ian McEwan's Saturday, where political imagination and literature intersect to offer a perspective on the trauma caused by the events of September 11 and the United States' subsequent "War on Terror." These events unfolded within a cultural consciousness steeped in grand narratives- a consciousness that produced a psychological state later described as "postcolonial melancholia."

This paper also seeks to demonstrate how literature can serve as a bridge for negotiation, reconciliation, and ethical reflection within politics- without falling into the trap of a reactive or negative rejection of the other.

Keywords: modernity, postmodernity, postcolonialism, power, knowledge

وجد الكتاب بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر أنفسهم أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن يتكلموا أو أن يتلزموا الصمت، ونحسب أن أولئك الذين اختاروا التفاعل مع الحدث بالكتابة، انقسموا إلى فئتين، الفئة الأولى انخرطت في خطاب "الحرب ضد الإرهاب"، متماهية مع الحملات العسكرية التي قادتها الولايات المتحدة وحلفاؤها، بينما اتجهت الفئة الأخرى إلى التشكيك في فشل الرد العسكري، بتوظيف شجاعة أدبية انبنت على استدعاء ما يعرف بأخلاقيات التعاطف.

يبرز في هذا الصدد الدور البارز للخيال في بلورة تصور نظري عن تمثلات الآخر ك"الغير غير فاعل"، وباعتبار ثقافته تستجيب للعنف. نستحضر هنا ما كتبته غاياتري سبيفاك (Gayatri Spivak) التي تقول:"مادمنا غير قادرين على تصور الآخر كجزء من المنظومة الكونية وكفاعل متخيّل، فإن معظم الحلول السياسية والعسكرية، لن تستطيع أن تزيل الثنائية المتخيلة -نحن والآخر- التي أدّت إلى المشكلة من الأساس، ومن هنا تنبع أهمية التمرين الثقافي على الخيال. إنه تمرين تخيّلي في اختبار المستحيل؛ أي الدخول في حيّز الآخر، لذلك فمن دون هذا التمرين سرعان ما تتفكك الحلول السياسية سريعا لتساهم دون وعي في توسيع دائرة العنف"[1].

لعل من أهم الأعمال التي حاولت أن تختبر هذا الخيال، تلك التي كتبها إيان ماك إيوان (Ian McEwan)، ونقصد هنا عمله الروائي السبت (Saturday)[2]. تطرح الرواية واحدة من الأسئلة العميقة المتعلقة بعجز الغرب في الحفاظ عن بعده السياسي المتعلق بالديمقراطية وحقوق الإنسان، إذ إنها تقلب السؤال في معادلة تسائل مدى استطاعة الغرب نفسه في أن يحافظ عن بعده الأخلاقي. مبنى هذا العمل ينعطف بماك إيوان إلى توظيف أخلاقيات التعاطف، عبر فسح المجال لقوة التفكير الخيالي في السياسة بتمثل القيم. ومن أجل الكشف عن أبعاد لقيم أخرى غير الديمقراطية وحقوق الإنسان، تنحو هذه الورقة مسار المقارنة بين الحداثة وما بعد الحداثة في ضوء الرواية، كما ترنو إلى استكشاف تداعيات "الحرب ضد الإرهاب" على كل من الذات والآخر، باستحضار القضايا الذاتية والفاعلية. كما سنستعين أيضا أثناء التحليل بتوظيف مفهوم "السردية الكبرى" لجان فرانسوا ليوتار

[1] -Gayatri Chakravorty Spivak, Terror: A Speech after 9/11, "boundary, vol 31, issue 2, 2004". P 87- 88.

[2]- Ian McEwan, Saturday, (United Kingdom: Jonathan Cape, 2005).

(Jean-Francois Lyotard)، لنربط بين هذه السردية الكبرى وسياق ما بعد الحداثة، وصعود الولايات المتحدة كقوة عظمى. بالإضافة إلى ذلك، سنحاول الاستعانة بأطروحة ميشيل فوكو (Michel Foucault) عن العلاقة بين السلطة والمعرفة، إلى جانب الرؤية الفكرية لحميد دباشي عما يسميه بـ"ما بعد الاستشراق".

شهد عالم الأفكار تحولا جذريا ضد الادعاءات التقليدية والحداثية المتعلقة بالمعرفة والحقيقة والعقل، كما برزت تعريفات جديدة للمعرفة والسلطة. لقد أسست ما بعد الحداثة تشكيلات جديدة للإنسانية، وللغة وللمجتمع، وشجّعت على التشكيك في العلم والعقل. يذهب الفيلسوف الفرنسي ما بعد الحداثي جان بودريار (Jean Baudrillard) إلى أنه أضحينا نعيش زمن "التطور التقني والمعلوماتي، ووهم الشاشة، التي لم تعد قادرة على تقريبنا للحقيقة"[3]. ولئن كان بودريار لم يعش في زمن اليوم الذي شهد انتعاشة غير مسبوقة للشبكات الاجتماعية وانتشارها الواسع، سيأتي مانويل كاستلز (Manuel Kastels)[4] بعده ليبين أن صعود الشبكات ووسائل الإعلام والتواصل بالشكل الحالي ساهم في خلق مجتمع يتبنى اللايقين، ويؤمن بانعدام وجهة النظر الثابتة؛ إذ لم يعد أحد متأكدا مما يعرفه، ولم تعد المعرفة تُرى كجوهر لفهم الظواهر، ولا كعنصر مكتمل، بل أصبح الواقع يُفهم على أنه أمر نسبي.

بناء على هذا التطور الحاصل الذي لم يعد على إثره الشّر يُعرّف أخلاقيا، ولا المعرفة حقيقة، يستكشف ماك إيوان في روايته "السبت"، ازدواجية مشاعر بطله "هنري بيرون" (Henry Perwone)، وتوحي بأن موقف "بيرون" من الحرب، وإن لم يكن مكتملا بالكامل، إلا أنه يميل بوضوح إلى تأييد الغزو الأمريكي-البريطاني للعراق. ومن خلال بناء شخصية بطل يجمع في آن واحد بين كونه الإنسان العادي، بتعبير الفرنسيين " l'homme moyen sensual"، وبين كونه مناهضا شرسا للتيار الفكري غير الليبيرالي. يقدّم ماك إيوان بطل الرواية على أن حالته

[3] - Jean Baudrillard, La transparence du mal: Essai sur les phénomènes extrêmes. (Paris: Galilée, 1990). P 130.

[4]- In: Manuel Castells, The Network society: a cross cultural perspectives,(Edward Elgar publishing, 2004).

النفسية تتلاءم مع الوصف الذي قدّمه بول جيلروي (Paul Gilory) في تحليله عن ما يعرف بالحزن ما بعد الاستعماري.

لا شك أن ماك إيوان، بصفته كاتبا طالما انشغل بأسئلة تتعلّق بالهوية الإنجليزية ومعاني الإنجليز. "لا يقدّم في هذه الرواية قلقا محصورا عن مسألة السلامة الشخصية ضمن عالم سياسي متزعزع، بل يرسم حالة نفسية عميقة أطلق عليها عالم الاجتماع بول جيلروي في مؤلفه الاستفزازي الأخير اسم الكآبة ما بعد الاستعمارية"[5]. ففي كتابه هذا، يتساءل جيلروي عن مكانة العرق داخل الثقافة السياسية منذ إمبريالية القرن التاسع عشر، مرورا بصراعات التحرر الوطني ومناهضة الاستعمار في منتصف القرن العشرين، وصولا إلى التخلّي عن التعددية الثقافية في الزمن الحاضر. ضمن هذا السياق يقول: "لقد حولت القوة الإمبريالية المتجددة للولايات المتحدة، التعددية الثقافية إلى بُعدا من أبعاد الصدام بين حضارات متكاملة ومتعارضة في جوهرها، وهو ما ضخّ طاقة سلبية إضافية في هذا المسار ما بعد الاستعماري الهش"[6].

وفي الرواية، حين يتصادم الشخصيتان الرئيسيتان (هنري وباكستر)، يحاول "هنري" أن يسيطر على الموقف وينقذ نفسه من خلال استغلال معرفته وعقلانيته وامتيازاته. إنه يتعامل مع "باكستر" الآخر بذات اللامبالاة التي يبديها العالم الأول تجاه العالم الثالث، من دون أن يأخذ بعين الاعتبار أن هذا السلوك قد يؤجج الغضب ويغذّي نزعة العنف، وكنتيجة لهذا السلوك، يتعدّى "باكستر" على منزل "هنري" الآمن، كاشفا هشاشة ذلك الأمن المتخيل، ومُشكّلا تهديدا بالإبادة يحاكي في رمزيته ما حدث في نيويورك سبتمبر 2001.

تدور أحداث رواية "السبت" في لندن، يوم السبت 15 فبراير 2003، وهو يوم المسيرة الاحتجاجية ضد غزو العراق. تتابع الرواية مسار جرّاح الأعصاب "هنري بيرون" وهو يتحرك خلال يوم صعب ومضطرب. ويبدو أن الحبكة التي تمتد على يوم واحد فقط تتحدد من خلال المواجهة العنيفة مع الخصم "باكستر"، حيث تُروى من وجهة نظر

[5] - In: Elizabeth Kowaleski Walace, Postcolonial Melancholia In IAN McEWAN'S" SATURDAY". “Studies in the Novel, Vo 39, issue 4:2007. P 465-480.

[6] - In: Paul Gilroy, Postcolonial melancholia. (Columbia :University Press, 2005).

"بيرون" وبزمن المضارع. يَعقد ماك إيوان آماله على اختبار ما إذا كان الخيار الأخلاقي وقوة الخيال، من خلال الأدب قادرَين على دفع التفكير العقلاني الصارم إلى التراجع لصالح الواجبات الأخلاقية.

تُصوّر الرواية "هنري" بوصفه مخيالا لما تجسده الحكومات الغربية، وتربط مساره في ذلك السبت بمسار الولايات المتحدة في أحداث 11 سبتمبر وما تلاها. إنه يُقدّم كعقلاني متطرف ومنفصل عن الآخرين، منجذب إلى فكرة الاعتماد على الذات والهيمنة الليبرالية. وفي الوقت ذاته، يشعر بالخوف من أي اختلاف داخل العاصمة المتعددة الثقافات والأعراق (لندن). بمعنى آخر، فإن انغلاق الأمم الغربية على ذاتها يبدو وكأنه يمتد إلى "هنري" في شكل فردانية مطلقة ضدّا في الآخر. ولهذا، فهو ينظر إلى الآخر بوصفه كائنا غير طبيعي، ويبرر رفضه التعاطف مع الآخرين المختلفين خارج إطار عائلته بالقول، إنه إن وسّع دائرة التعاطف لتشمل أناسا بعيدين واعتبرهم إخوته وأخواته، فقد يجد نفسه في نهاية المطاف يوسّع هذه الدائرة لتشمل الحيوانات، أو حتى الإرهابيين.

إن المقاربة الأخلاقية التي يتبنّاها ماك إيوان روائيا في تعامله مع أحداث 11 سبتمبر، يمكن قراءتها كنوع من التأكيد على قدرة الخيال السياسي عبر الأدب مواجهة سردية الحرب ضد الإرهاب. يمكن قراءة رواية "السبت"بوصفها سردية بديلة عن الرد العسكري على أحداث 11 سبتمبر، إذ تحاول بوجه عام، أن تبيّن أن تبني العنف كوسيلة للقضاء على الإرهاب لن يؤدي إلا إلى توليد المزيد من العنف.

أولا: بشأن الخلفية النظرية والسياق العام

1. حالة ما بعد الحداثة ومسألة الانتماء

1-1. الحداثة وما بعد الحداثة

ينطبق معنى الحداثة بشكل أساسي على نقطة انطلاق الوعي بالذات والإدراك الفردي. لطالما نُظر إلى ما بعد الحداثة على أنها رد فعل مضاد للحداثة، ولئن كانت الحداثة تأسست على فرضية مفادها أنه لا بد من القطيعة مع الأشكال الفكرية التقليدية، فإنها ارتكزت على المثالية والثقة المفرطة بالعقل. أما ما بعد الحداثة، فهي تتميز بشكّ عام تجاه العقل، وتؤكد أننا نعيش في عالم مجزّأ، مبني ثقافيا وسياسيا، أكثر مما هو قائم على أسس موضوعية ثابتة.

اندفعت كل من الحداثة وما بعد الحداثة بمجموعة من القيم والالتزامات، "يكمن في جوهرها، كما سنسمّيها مؤقتا بالإلتزام بالطاقة التقدمية والتحررية، ومن ثم الطوباوية، التي تختزنها عملية الإنتاج الثقافي عموما"[7].

في المقابل، ظهرت ما بعد الحداثة بشكل تدريجي باعتبارها تشكيلا قويا لمشاعر وأفكار جديدة تؤمن بزوال المرجعيات الكبرى[8]، ومن هذا المنظور، وعلى الرغم من أن الحداثة وما بعد الحداثة تنبعان من نفس الجوهر القيمي، إلا أنهما ليستا متماثلتين.

يصرّ الحداثيون كما أشرنا سابقا على اعتبار المعرفة وحدة شاملة وعالمية، بينما، يتمسك أنصار ما بعد الحداثة برؤية هذا الإصرار على أنه رعب للحقيقة، ذلك الرعب الذي تفرضه الفرضية الكلاسيكية التي تؤكد أن المعرفة هي وحدة متكاملة. يمكن النظر في إطار رواية "السبت" إلى البطل "هنري بيرون" بوصفه ذاتا متذبذبة، ذاتا تكونت معرفتها بالعالم من خلال الدولة وسردياتها المؤسسية الكبرى (Meta narratives). يظهر في الرواية البطل في حالة تذبذب وتردد في تكوين رأي واضح حول سياسة الولايات المتحدة ضد الحرب على الإرهاب، ويعود هذا التذبذب إلى انتمائه لعالم ما بعد الحداثة وجذوره الاجتماعية.

---

[7] - David J. Herman, Modernism versus postmodernism: towards an analytic distinction. “Poetics today, vo 12, issue 1, 1991”, P 55-86.

[8] -In: David Harvey, The condition of postmodernity an enquiry into the origins of cultural change. (London :Basil Blackwel, 1989).

يهدف جان فرانسوا ليوتار في كتابه "ما بعد الحداثة"، إلى دراسة وضعية المعرفة في "المجتمعات المتقدمة" مثل الحالة التي ندرسها هنا؛ المجتمع الحضري. يشير ليوتار في زمن ما بعد الحداثة إلى أنه منذ بداية القرن العشرين، انعطفت مسألة الثقافة نحو التجزئة، وأصبحت مجموعات جديدة من القواعد هي السائدة في العلوم والأدب والفنون، وفي تجربة ماك إيوان، تعتبر الرواية جزءا من زخم جديد يجسد تصادمية العلم بين العلوم الحقة والعلوم الإنسانية، مما أدى إلى نشوء دراسات بينية ارتبطت فيما بات يعرف بعلم الأعصاب المعرفي. تبدأ الرواية بمشهد احتجاج ضخم في وسط لندن ضد سياسة الولايات المتحدة في الحرب على الإرهاب، وبشكل خاص، غزو العراق من قبل الولايات المتحدة.

"تمثل الرواية موقعا ميتافيزيقيا للصراع بين الآداب والعلوم من أجل الانحياز للمعنى الجوهري للعقلنة، كما تعرض على القارئ طرقا مختلفة للمعرفة؛ حيث يتم التساؤل والجواب بشكل صريح عن دور العلوم والآداب والفنون كوسائل لتثبيت فرضية معنى أن يكون الإنسان إنسانا"[9]. يبدو وفقا لهذا المنظور الذي يعرضه ماك إيوان، أن حالة الأدب تلعب دورا مهما هنا؛ "الدور الذي يقلص الفجوة بين الخطابات المعرفية والأخلاقية والسياسية، وبالتالي يفتح الطريق نحو وحدة التجربة وتنوعها"[10].

البطل في الرواية هو "هنري بيرون"؛ طبيب جرّاح أعصاب ناجح، إذ تعطي مقدمة الرواية انطباعا عنه بوصفه ذاتا متوترة حدّية متحيّرة، ذلك أن ارتباط حيرته حول نفسه وحدود معرفته من صميم "عالم السياسة غير المستقرة وحالة نفسية يسميها عالم الاجتماع بول جيلروي الحزن ما بعد الاستعماري"[11].

يرتبط في الواقع، هذا الحزن ما بعد الاستعماري أساسا بعالم السياسة غير المستقرة والحالة النفسية التي تنتج عنه. يمكننا أن نجادل بأنه يرتبط أيضا بحالة إبستمولوجية. فقبل ما بعد الحداثة، "كان يُنظر إلى مهمة العالم والفيلسوف تقليديا على أنها تتأسس على صياغة القواعد الخطابية التي لها قابلية تطبيق عالمية[..] وفي هذا

[9]- Susan Green, Consciousness and Ian McEwan's Saturday: "What Henry Knows". "English Studies :vo 91, issue 1, 2010): P 58-73.

[10]- Jean-François Lyotard, La condition postmoderne: Rapport sur le savoir. (Paris: Les éditions de minuit, 1979).

[11]- AD Editorial Team, 'AD Interviews: Saskia Sassen', ArchDaily, Aug 22, 2013, http://www.archdaily.com/?p=418484 [Date accessed: 19 September 2024].

الصدد، كانت مهمتها تنطوي على المراقبة والإنتاج ووصف الواقع والمساهمة في بنائه وفق منطلق وحدوي"[12]. بيد أنه مع فترة ما بعد الحداثة والفلاسفة ما بعد الحداثيين مثل ليوتار، أصبح ينظر إلى العالم الذي نعيش فيه على أنه مجرد بناء ثقافي وسياسي لا يوفر أي نقطة انطلاق للتعميم والإنتاج ومراقبة الكل. كل شخص، بما في ذلك الفيلسوف أو أي صنف من "منتجي" المعرفة، أضحى محكوم عليه الالتزام بالتفسير من داخل اللغة الخاصة به والتي ينتمي إليها.

2-1. السرديات الكبرى وحالة ما بعد الحداثة

تتسم حالة ما بعد الحداثة بالتشكيك وعدم الثقة في مختلف المعارف (أونتولوجيا، أيديولوجيا، سوسيولوجيا، سيكولوجيا، لاهوتيا، تاريخيا) التي تدعي أنها مطلقة وكاملة. ومن أهم المفاهيم ما بعد الحداثة، ولدى ليوتار نفسه؛ مفهوم السردية الكبرى.

ينطوي مفهوم السردية الكبرى على تكريس شمولي لمختلف الأحداث التاريخية والظواهر الاجتماعية والثقافية باعتبارها تستند على الدعوة إلى الحقيقة والقيم العالمية. ينتقد ليوتار السردية الكبرى، ويرى أنها مجرد سمة من سمات الحداثة. إنها إرث الفكر التنويري الذي يعتبر العقل والتعقيل وتعميمهما شيئا عالميا. يبدو ماك إيوان في روايته أنه يدرك مشكلة السردية الكبرى، خاصة عندما يتباين البطل والخصم تماما من حيث الثقافة والعرق والطبقة الاجتماعية. كلاهما يعيشان ويختبران الحياة في مدينة متعددة الثقافات والأعراق ما بعد الحداثية. عمل ماك إيوان خيالي يحاول تقويض السردية السياسية الأمريكية التي تصور سياسة الحرب على الإرهاب الخاصة بالولايات المتحدة كاستراتيجية عالمية للسلام، وعبرها؛ أي الرواية، يقدم مساحة للتفكير النقدي في الصدمة التي تسببت فيها أحداث 11 سبتمبر، والآثار التي ترتبت عنها. ترتبط بالنسبة لنا السردية الكبرى هنا في شرعنة غزو العراق من قبل الولايات المتحدة من خلال ادعاء حقها في إيقاف الإرهاب.

[12]- Colin Roberts, Modernity versus postmodernity: The philosophy of Jean-François Lyotard. « Modern & Contemporary France, vo 2, issue 1 1994 », P 64-67.

تحاول رواية "السبت"، كعمل أنغلو-ساكسوني، تقويض السردية الكبرى "العولمة"، وترنو إلى الاقتراب من التعاطف مع الآخر بعد أحداث 11 سبتمبر. إذ إنها تؤمن بأن مثالية الأدب تمتلك القدرة على تفسير حياتنا، بقوته وقدرته على التخيّل. "إذا لم نحاول في خيالنا تمثّل الآخر بوصفه فاعلا خياليا، فلن تكون الحلول السياسية أو العسكرية كفيلة بإزالة الثنائيات التي أنشأت المشكلة أصلا"[13]. الهدف من هذه الورقة يتغيّا دراسة ما إذا كان عمل إيوان بعد 11 سبتمبر، من خلال فضاء خيالي، يحاول إيجاد حلول أو اقتراحات تتجاوز السردية السياسية النيوليبرالية الكبرى. وسنحاول أن نظهر كيف تعكس الرواية السياسي في الحياة الحميمية للشخصيات. من خلال تحليل المتن عبر مفهوم السردية الكبرى عند ليوتار، إضافة إلى فهم ما إذا كان العمل يعارض السردية الكبرى الغربية الرسمية، وكيف يقترح أن التعامل مع "الآخر" يجب أن ينبني على خيارات أخلاقية.

تتبنى ما بعد الحداثة طرحا يشجع على التنكر لوجود تمثل داخلي نقي للأشياء في العالم الخارجي، وترفض اعتباره معرفة سابقة وضرورية. بالنسبة لريتشارد مكاي رورتي (Richard Mckay Rorty)[14]، فإن المعرفة ليست مطلقة، إنها مرتبطة بلغتنا، وهذه اللغة تتكون من جمل لا حصر لها، وهي متغيرة من بيئة إلى أخرى وخاضعة للسياق التاريخي، وبالتالي فإن المعرفة تتشكل حسب المكان والزمان.

3-1. الخيال والتعاطف

نسجل على أن ماك إيوان يتبع نهجا أخلاقيا في قراءة تداعيات الحدث؛ أي 11 سبتمبر، ويجسده من خلال استخدامه لقصيدة ماثيو أرنولد "دوفر بيتش"[15] على أنه يثير أخلاقيات التعاطف بأسلوب سردي انبنى على قوة التفكير الإبداعي. يبدو إذن، أن هذا الوضع مشابها للمفهوم الذي طرحته إيزوبيل أرمسترونغ (Isobel Armstrong)، التي تعتبر فعل الخيال وسيلة للتعاطف مع الآخرين. إنّه تخيل "للأنا" داخل عقل "الآخر". لذلك فالتعاطف بالنسبة لها يكمن في القدرة على مشاركة وفهم وضع شخص آخر من خلال إمكانية فهمه عبر تخيّل

---

[13]- Ibid.

[14]- Voir: Richard M. Rorty, La philosophie et le miroir de la nature, Traduit par, Thierry larchaisse. (Paris: seuil, 1986).

[15]- تصف القصيدة التي كتبها ماثيو أرنولد التحولات الثقافية والاجتماعية التي عرفها الغرب في القرن 19، وتعبر بشكل ضمني عن القلق الذي عرفه الاتجاه العام بالشك في الدين والعلم، فهي تنطلق من وصف البحر شاطئ دوفر وتحاكي عبر الفلسفة والتأمل التغيرات الروحية التي عرفها العالم.

أنفسنا في موقعه داخل الخيال[16]. بيد أن ما نلاحظه يذهب في طرح قوامه أن هذه الرؤية للخيال والتعاطف يتم التعامل معها من خلال الحزن ما بعد الاستعماري الذي أومأنا إليه سابقا.

يرى بول جيلروي في كتابه **الحزن ما بعد الاستعماري**، أن "استمرار وتجدد القوة الإمبريالية للولايات المتحدة الأمريكية جعل من التعددية في المسألة الثقافية جزءا من صراع حضارات متكاملة من جهة ومتناقضة من جهة أخرى، وهو ما ضخ طاقة سلبية في مسار هذه العملية ما بعد الاستعمارية الحساسة"[17]. يكمن الحزن ما بعد الاستعماري هنا في التأثيرات الإمبريالية التي تظل كامنة. تعترف "السبت" بأن لندن هي مدينة كبيرة، متعددة الثقافات والعرقيات، بيد أنه عندما يشير إلى "باكستر" كغريب الذي يختلف عرقيا وثقافيا، تقدمه كدخيل. يمكن تفسير هذا الأمر على أنه جزء من التأثيرات الكامنة في الحزن ما بعد الاستعماري.

نوقشت قضية الحرب على الإرهاب بشكل ضمني ومفصل داخل الرواية. وفي تصور كاتبها تبدو الحرب على الإرهاب مشابهة لما ذكره إليك بويهمر (Ellek Boehmer) عندما يقول: "أصبحت الحرب على الإرهاب أداة مثالية في مرحلة ما بعد الحرب الباردة، إذ أتاحت للدول الغربية إعادة فرض هيمنتها، التي يُفترض أنها طويت بانتهاء الحقبة الاستعمارية، من خلال ممارستها السيادة عبر حرب لا تنتهي"[18]. نشير إلى أن "السبت" تشكك أو على الأقل تساءل فكرة الوكالة الإمبريالية الغربية الجديدة التي تنشر السردية الكبرى المتعلقة بجلب السلام إلى العالم، وهي في الأصل تحاول أن تؤسس سردا بديلا للحرب على الإرهاب يتجاوز تلك الذي تبثه وسائل الإعلام الاجتماعية والسرديات الرسمية.

---

[16]-In: Isobel Armstrong, Victorian Scrutinies :Reviews of poetry, 1830- 1870. (The Athlone press :1972).

[17]- Ibid.

[18]- Elleke Boehme and Morton S, (eds), Terror and the postcolonial :A concise companion. (London :Wiley Blackwell, 2010): P 141-159.

2- ما بعد الاستشراق: المعرفة والسلطة في زمن الإرهاب

2-1. ما بعد الاستشراق

يمثل إسهام حميد دباشي في دراسته المعنونة ب"ما بعد الاستشراق: المعرفة والسلطة في زمن الإرهاب"، منطلقا منهجيا لمعرفة الكيفية التي تناول بها فعل التمثيل في رواية ماك إيوان. لا بد في البداية أن نشير إلى أن حميد دباشي هو مؤلف وناقد إيراني-أمريكي. ولد وتربى في أهواز بإيران، حيث بدأ دراسته بنفس البلد، ثم انتقل إلى الولايات المتحدة لاستكمال دراسته، ليحصل على شهادة الدكتوراه بعدها في السوسيولوجيا الثقافية والدراسات الإسلامية من جامعة بنسلفانيا في عام 1984. كتب دباشي العديد من الكتب، من بينها "إيران: شعب مقطوع" و"ما بعد الاستشراق: المعرفة والسلطة في زمن الإرهاب".

في كتابه "ما بعد الاستشراق" يجرّب دباشي الإجابة عن سؤال أساسي: "من يحق له تمثيل من؟ وبأي سلطة؟"[19]. يعود دباشي محاولا الإجابة عن السؤال الذي طرحه إلى العمل البارز لإدوارد سعيد "الاستشراق"، وعلى غرار الطرح الذي قدّمه سعيد، يعالج دباشي قوة التمثيل والوكالة الاستعمارية النمطية، إذ إنه يركز بشكل أكبر على الولايات المتحدة الأمريكية وهيمنتها على العالم بعد الحرب الباردة. يرى دباشي في كتابه أنه: "سيكون من الضروري تحديث ملاحظات إدوارد سعيد وإعادة البناء عليها من أجل فهم الأحداث الرمزية التي أدت إلى متلازمة ما بعد 11 سبتمبر"[20]. يمكننا فهم هذا الأمر على أنه تصريح من دباشي يعتبر فيه أن ما بعد 11 سبتمبر وتداعياتها، يمكن حسبانها نقطة تحول في عصر ما بعد الحداثة التي تحتاج إلى تحديث جديد ونمط شمولي للانخراط في السردية الكبرى. يهتم دباشي أكثر بقوة التمثيل الذاتي ومكانة التمرد التي تقوم به الطبقات المهمشة، فهو يقول: "إذا كان الاستشراق في الاستعمار الأوروبي يهدف إلى صناعة "شرق" يتماشى مع الهيمنة الاستعمارية على العالم، فإن العديد من المختصين في دراسة المنطقة في مرحلة ما بعد الاستعمار، يمكن اعتبارهم امتدادا لجهاز استخبارات

[19]- Hamid Dabashi, Post-Orientalism: Knowledge and Power in a Time of Terror. (New Brunswick :Transaction Publishers, 2009).

[20]- Ibid.

معرفي يخدم المصالح الأمريكية"[21]. ومن هنا، يصنف دباشي دراسة المنطقة بعد أحداث سبتمبر كنوع جديد من الاستشراق، حيث يعزز هذا النوع من الاستشراق تنميط السياسات بما يخدم الأهداف الجيوسياسية للنظام العولمي.

اعتبر قبل ذلك دباشي، أن انهيار الاتحاد السوفيتي سنة 1991 يعد منعطفا بالنسبة له، سهل من إحداث نقلة صعود إمبراطورية أمريكية أحادية القطب. ومع هذه النقلة "انتهت أيضا الوظائف الخاصة التي كانت تقدمها تحولات دراسة المنطقة عن الاستشراق، إذ لم يعد الغرب قائما بالمعنى التقليدي بعد سقوط جدار برلين، ومع نهاية الغرب، انهارت معه جميع معارضاته الثنائية، وعلى رأسها الشرق، الذي ذاب بدوره في عالم عولمي غامض"[22]. إن سقوط الغرب التقليدي أو جموده حسب نفس الكاتب أدى إلى هيمنة الولايات المتحدة على العالم. وتأسيسا على ذلك، يلاحظ بأنه "على عكس القوى الإمبريالية الأوروبية التي اعتمدت الهيمنة المباشرة، اضطرت الولايات المتحدة الأمريكية -بصفتها القوة العظمى الجديدة- إلى ابتكار نموذج مختلف كليّا في ممارسة النفوذ. تمثل هذا النموذج في العمل الاستخباراتي وجمع المعلومة وتبني استراتيجية عالمية، وتوفير تبرير أيديولوجي، هو ما شكّل الأساس الذي استندت إليه في دراسات المنطقة"[23].

يؤكد ليوطار في كتابه **الشرط ما بعد الحداثي** بأن، "المعرفة العلمية لا يمكن أن تقدم بوصفها معرفة حقيقية ما لم تستدع الآخر وتدرجه في بنيتها. فالمعرفة التي تبنى على سردية كبرى تنطلق من وجهة نظر واحدة. وهي ضمن هذه الحالة لا تعد معرفة حقيقية لأنه تختزل الواقع وتهمش الآخر وتلغي التعدد"[24]. يُقدم البطل في رواية "السبت"، على أنه موضوع ما بعد حداثي، حيث تُخونه رؤيته العلمية للعالم، إذ يدرك بأن "باكستر"، الخصم، يمكن أن يكون رفيقا متعاونا من خلال الأدب بدلا عن التفكير العقلاني، وهذا النمط من التمثيل للأدب يمكن اعتباره متفوقا على المعرفة العلمية، إذ يعد الأدب ضمن هذا السياق قادرا على استيعاب جميع أنواع المعرفة.

---

[21]- Ibid.

[22]- Ibid.

[23]- Ibid.

[24]- Jean-François Lyotard, La condition postmoderne: Rapport sur le savoir. (Paris: Les éditions de Minuit, 1979).

2-2. السلطة والمعرفة

لا يوجد من انشغل بتفكيك مفهومي السلطة والمعرفة مثل الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو (Michel Foucault)[25]، فوفقا له، تعتمد السلطة بدرجة أولى على المعرفة. بعبارة أخرى، إن المعرفة هي من تنتج السلطة وتعيد إنتاجها، والعكس صحيح. يستخدم فوكو مصطلح "السلطة/المعرفة" للكشف عن أن السلطة تُبنى من خلال الأشكال المعترف بها من المعرفة؛ مثل الفهم العلمي. والواقع أن التفكير في العلاقة بين السلطة والمعرفة ليس أمرا جديدا، بل هناك فلاسفة ومفكرون آخرون تناولوا هذا الموضوع قبله. نستحضر هنا ما كتبه فرانسيس بيكون (Francis Bacon) عن فكرة أن المعرفة الإنسانية والسلطة هما نفس الشيء[26].

الفكرة هنا تحيل إلى أن السلطة تؤدي إلى المعرفة، وعلى غرار الدراسات السابقة لمفهوم السلطة، فإن مايميز دراسة فوكو، هو أنه لا يحصر السلطة في الأفراد أو الطبقات أو المؤسسات، لأن السلطة في نظره لا تمارس من قبل شخص أو فئة بعينها، بل تُرى على أنها متفرقة، وتمتد إلى مختلف المجالات، كعناصر ضمن استراتيجيات واسعة النطاق. وبدلا من ممارسة السلطة، يتم تشكيل الأفراد عبر السلطة بشكل خطابي. قد تسهم أفعالهم في خضوعهم للسلطة. كما أن السلطة هي مصدر رئيسي للانضباط الاجتماعي والتوافق، من خلال تحويل الانتباه بعيدا عن "السلطة السيادية"، التي كانت تتركز تقليديا في الدول الإقطاعية لفرض سلطتها على رعاياها.

يشير فوكو إلى نوع جديد من "السلطة التأديبية"، التي يمكن ملاحظتها في الأنظمة الإدارية والخدمات الاجتماعية التي نشأت في أوروبا في القرن الثامن عشر، مثل السجون والمدارس والمستشفيات العقلية. ولئن كانت أنظمة المراقبة والتقييم تلك لا تتطلب القوة أو العنف بعد الآن، حيث تعلم الناس كيف يضبطون أنفسهم ويتصرفون بطرق متوقعة، فإن نظرية فوكو حول مفهوم "السلطة/المعرفة" كفيلسوف ما بعد الحداثة، تأخذ بعين الاعتبار أنه لا توجد حقيقة مطلقة. فحسبه، المعرفة الإنسانية هي فقط ما يتفق عليه مجموعة من الناس.

2-3. السلطة والمعرفة في زمن الإرهاب

[25] -In: Michel Foucault, «Deux essais sur le sujet et le pouvoir» in parcours philosophique, (paris: Gallimard, 1984).

[26] -In: J. Spedding, R.L.Ellis, and D. Heath, The works of Francis bacon, (London: Longman, 1857).

أنتج عالم الأفكار أطروحات انقلبت على الادعاءات التقليدية والحديثة للمعرفة والحقيقة والعقل، كما ظهرت أطروحات جديدة عن المعرفة والسلطة، ومن ثم بروز أعمال تنتمي إلى ما بعد الحداثة بتصورات جديدة عن الإنسان واللغة والمجتمع. إنها تشجع على عدم الثقة في العلم والعقل. غدت وسائل الإعلام حسب الفيلسوف الفرنسي ما بعد الحداثة جان بودريار، لا تعكس الواقع[27]. إن بروز الإعلام وشبكات التواصل خلق مجتمعا يتبنى عدم اليقين، ويستحيل معه تحديد نقطة الانطلاق. لم يعد بإمكان أحد أن يكون متأكدا مما يعرفه/تعرفه. كما أنه، لم تعد المعرفة كشيء جيد مطلق بطبيعته، ولا هي مكتملة؛ وبالتالي فإن الواقع بكل ما يفرضه وبكل ما وصل إليه يبقى نسبي.

تعد المعرفة والسلطة من وجهة نظر ليوتار وجهين لسؤال واحد، إذ يلاحظ في عالم مليء بعدم اليقين والنسبيّة، أنه لم يعد يتم اللجوء إلى السردية الكبرى سوى باعتبارها أداة لشرعنة السلطة الموحدة التي تمارس بواسطة القوة والهيمنة. أصبح من الصعب بالنسبة للولايات المتحدة، ترتيب الأوضاع أو فرض الهيمنة على عالم ما بعد الحداثة. وجدت الولايات المتحدة بعد نهاية الحرب الباردة، صعوبة في تبرير حروبها ضد الإرهاب وسردياتها الكبرى القائمة على ادعاء جلب السلام للعالم. ومع الزمن أصبحت مقاومة السردية الكبرى للولايات المتحدة ملحوظة بشكل مرئي في العديد من المناطق، على سبيل المثال في أفغانستان والشيشان. إن الحرب في زمن ما بعد الحداثة ليست مثل الحرب في زمن الحداثة. فمنذ نهاية الحرب الباردة، والولايات المتحدة تحاول هي وحلفاؤها تجنب العنف والفوضى التي واجهوها في إفريقيا والشرق الأوسط، وأفغانستان بإخضاع الحرب لصالح السلم عن طريق السياسة. إن إخضاع الحرب للسياسة هو ما يقوم عليه مفهوم السيادة الحديثة، وهو المبدأ التوجيهي للقوة العظمى.

يمكن ربط إخضاع الحرب للسياسة بشكل وثيق بالأحداث المأساوية ل11 سبتمبر، وكيف يمكن أن تكون الهجمات المضادة من "الآخر" مدفوعة بمشاعر المقاومة ضد استخدام السردية الكبرى من قبل القوة العظمى.

[27]- Jean Baudrillard, La transparence du mal, op. cit. P 130.

بالعودة إلى فوكو مرة أخرى، يمكن تفسير هذا السلوك من الهجمات المضادة باعتباره "الإرادة في رفض الخضوع للهيمنة رغم ذلك الثمن الباهظ"[28].

3. الإرهاب مُعولَم: ما بعد الحداثة يفاوض ما بعد الاستعمار

3-1. ما بعد الحداثة والإرهاب

تحمل فكرة ما بعد الحداثة نظرة ترى أن تجربة الإنسان في الحياة هي عبارة عن سرديات مجزأة. لا يوجد شيء شمولي في ما بعد الحداثة، مما يجعل من الغموض أمرا محتملا فيما يتعلق بما هو صحيح وما هو خاطئ.

"تحل فكرة الحقيقة المطلقة محلها رؤية تعتبر الحقيقة بناء اجتماعيا ثقافيا يتشكل من خلال العوامل البيئية والظروف المحيطة، لا كمعرفة مكتسبة من سردية كبرى أو أيديولوجيا شاملة تهدف إلى تمثيل الواقع ضمن إطار تاريخي واسع. هذه السرديات الكبرى تكون بطبيعتها قمعية وتتنكر صوت الجماعات المهمشة في المجتمع. جميع الادعاءات عن السلطة أو الحقيقة هي في الأصل ادعاءات تعبر عن القوة. لذلك فالإيمان بالعقل كوسيلة للوصول إلى الحقيقة هو أمر مشكوك فيه. إن الحقيقة والعقل هما مفهومان متجاوزان ولا يعكسان سوى اعتقاد أصبح غير مقبول"[29].

إن ترويج الولايات المتحدة للعولمة يعد شكلا من أشكال التنميط الشمولي للسرديات الكبرى. ولئن كانت العولمة لا ترتبط بالمراقبة الحكومية ومعسكرات الاعتقال كما كان الحال في السابق، فإنها مع ذلك تبقى مثل أي حركة شمولية، تسعى إلى الكمال والتنميط والقولبة، وهذا ما يؤدي إلى العنف. يشير فوكوياما (Francis Fukuyama)[30] إلى أن ظهور الشمولية بهذا الشكل تم تحت ذريعة "الدولة المتجانسة"، إذ الهدف من قيام هذا النظام حسبه، جعل من أهم أهدافه هو تقليص قوة الدول الاستبدادية. تنطلق العولمة الأمريكية من خلال مبدأ إلغاء التنظيمات، وفكرة حقوق الإنسان؛ أي أن الضامن لهذا النظام العالمي النهائي هو القوة العظمى الوحيدة المتبقية

[28]- Carl Death, Counter-conducts: A Foucauldian analytics of protest. "Social Movement Studies :vo 9, issue3 2010". P 235-251.

[29]- Jean Baudrillard, La transparence du mal, op. cit. . P 133–137.

[30]- Voir: Francis Fukuyama, State-Building: Governance and world order in the 21st century. (Corneil University Press: 2004).

في العالم، الولايات المتحدة الأمريكية، التي تمتلك بشكل ظاهري، القوة العسكرية والاقتصادية والأسواق والقيم، مقارنة بالديمقراطيات الغربية، التي أصبحت عالمية.

سيواجه هذا الترويج للعولمة أشكالا من المقاومة في العالم الإسلامي، وستظهر إحدى ملامح هذه المقاومة بوضوح في 11 سبتمبر 2001. في الواقع، يمكن اعتبار هذا الهجوم بالذات هجوما على الأسطورة السائدة للعولمة التي تروج لها الولايات المتحدة. إنه يوحي بأن ذاتية "الآخر" يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار بجدية خارج غطاء السرديات الكبرى. تقود الولايات المتحدة وحلفاؤها حملة عسكرية للحفاظ على النظام والأمن العالمي تحت عنوان "الحرب ضد الإرهاب". يصف جاك دريدا (Jacques Derrida)[31] هذا السلوك العسكري بأنه "دورة قمعية مفرغة"، ويجادل بأن الحرب على الإرهاب بهذا الشكل لن تعمل إلا على توليد حروب أخرى وردود فعل عسكرية من الدول المعنية، وربما في هذا الأمر تحفيز على المزيد من العنف والإرهاب بين كل من الولايات المتحدة وأعدائها.

3-2. ما بعد الاستعماروالإرهاب

سمح الرفض ما بعد الحداثي للإبستمولوجيا الغربية بإعطاء مساحة لبروز دراسات جديدة تعبّر عن نفسها في مابات يعرف بالدراسات ما بعد الاستعمارية (Postcolonial). غير أن الطفرة التي سيعرفها هذا النوع من الدراسات مع صعود القوة العظمى؛ الولايات المتحدة، ومشروعها العولمي، سيمكنها من تجديد أطروحاتها وإعادة البناء عليها. "لقد أحدث التحول الإبستيمي الذي خلقته هذه الدراسات النقدية دعوة للتفكير في ما بعد الاستعمار لاستجواب الانتقال التاريخي من الاستعمار إلى العولمة الجديدة، حيث العلاقة بين الأشكال الوطنية والعابرة للحدود للحكومة والاقتصاد والمجتمع، والثقافة تشكل مجالا نقديا جديدا واعدا. لذلك يبدو أن دراسات ما بعد الاستعمار تتموضع في موقع تاريخي يمكنها بشكل جيد نقد وشرح الآليات التي تتكأ عليها العولمة"[32]. كما أن نهاية السرديات الكبرى كما يؤكد ليوطار قد منحت تفويضا لإنتاج تواريخ جديدة من قبل أولئك الذين تم

[31]-Voir: Jacques Derrida, Spectres de Marx :L'état de la dette, le travail du deuil et la nouvelle internationale. (Paris: Galilée, 1993).

[32]- Jaouad El Habbouch, Decentering Globalization: World-Literature, Terror, and the Postcolonial. "Interventions :International Journal of Postcolonial Studies, Vo 20, issue 4, 2018). P 577- 601).

تقويضهم سابقا، وهذا الأمر يطرح سؤالا عما إذا كانت هذه الدراسات الجديدة المسموح بها قد تكون خالية تماما من الهيمنة التقليدية للمركز الغربي والخلفية النيوليبرالية في التحليل. ستبرز بعد 11 سبتمبر، بلاغة "الحرب ضد الإرهاب" كسردية للقوة العظمى التي تشرعن سيادة الولايات المتحدة على "الآخر". وبالتالي، ستجد دراسات ما بعد الاستعمار نفسها في حاجة إلى إعادة تصور نقدها اتجاه الإمبريالية بشكل عام.

ثانيا: الأدب كخيال سياسي في مقاومة السردية الكبرى: دراسة حالة رو اية "السبت"

1. الحزن ما بعد الاستعماري والفضاء ما بعد الحداثي للكوارث

1-1. الحزن ما بعد الاستعماري في رو اية "السبت"

يشير ماك إيوان إلى أنه رغم أن رأي "هنري" بطل الرواية حول الحرب لا يبدو واضحا ومكتملا، إلا أن توجهه يميل بوضوح إلى دعم غزو أمريكا للعراق. يعتقد "هنري" أن "الحرب يمكن تبريرها لدواع إنسانية، فهي المبرر الوحيد الجدير بالطرح"[33]. تكشف الرواية استيقاظ "هنري" عند الفجر في حالة من "البهجة"[34]. ومثل أي يوم سبت عادي، سيقوم بلعب "السكواش" مع زميل له، ثم يزور والدته المسنّة. ما يميز هذا السبت هو أنه سيكون هناك تجمع عائلي في تلك الليلة، ولسوء حظه، لا يمر وقت طويل حتى يملأه شعور بعدم الراحة عندما يرى طائرة مشتعلة تتجه نحو مطار "هيثرو"، وهو يخطئ في الاعتقاد بأنها هجوم إرهابي في وقت مبكر من اليوم. تتغلغل مشاعر القلق في جميع جوانب يومه، وتزداد حدة هذه المشاعر عندما يعبر شوارع لندن التي امتلأت بأكثر من مليوني شخص يسيرون احتجاجا على الحرب في العراق.

يعاني هنري أثناء الحرب الوشيكة ضد العراق، من تفاقم التشاؤم داخل كينونته ويتزايد قلقه بشأن لندن، وحياته العائلية السعيدة، التي أصبحت مهددة بشكل ممكن مع كل لحظة. لعل هذا المضمون الروائي المتجه نحو خلق شخصية بطل تكون في الوقت نفسه تمثيلا للإنسان العادي، وخصما للأفكار العليا، هو ما جعل الكاتب يقدم لقرائه بطلا نفسيته تتناسب مع وصف جيلروي. وبلا شك، باعتباره كاتبا فذا قد انخرط في محاولة البحث

[33]- Ian McEwan, Saturday, (United Kingdom :Jonathan Cape, 2005), P 69.

[34]- Ibid, P 5.

عن أسئلة تتعلق بالهوية الإنجليزية، فإن هذه الرواية هي أقل قلقا بشأن توصيف السلامة الشخصية للأحداث في عالم يعج بالسياسات غير المستقرة وأكثر حول حالة نفسية وصفها عالم الاجتماع بول جيلروي، في مونوغرافيته المثيرة للجدل، بأنها الحزن ما بعد الاستعماري[35].

يساءل "الحزن ما بعد الاستعماري" لبول جيلروي مكانة العرق في الثقافة السياسية منذ العهد الإمبريالي في القرن التاسع عشر وصولا إلى النضال من أجل التحرر الوطني في منتصف القرن العشرين ورفض التعددية الثقافية في الحاضر. ظهرت بلا شك في مركز القضايا العرقية المعاصرة ورفض التعددية الثقافية، قوة إمبريالية جديدة، تجسدها الولايات المتحدة. "لقد جعلت القوة الإمبريالية الجديدة للولايات المتحدة التعددية الثقافية جزءا من صراع الحضارات المتكاملة وغير المتوافقة، مما ينقل طاقة سلبية إضافية إلى هذه العملية ما بعد الاستعمارية الدقيقة"[36]. في الرواية مشهد مهم، عندما يصطدم الشخصان الرئيسيان؛ "هنري وباكستر"، يحاول هنري السيطرة على الموقف وإنقاذ نفسه من خلال استخدام معرفته وامتيازاته. يعامل باكستر بتجاهل كتلك الذي يجسده التمثل الذي يمارسه العالم الأول تجاه العالم الثالث دون أن يراعي في الاعتبار أن ذلك قد يسبب ويحفز على المزيد من الغضب والعنف. ونتيجة لهذا الواقع، يقتحم باكستر منزل هنري الآمن، ليكشف عن ضعف أمانه المتخيل ويطرح تهديدا بالإبادة مشابها لذلك الذي تم توجيهه ضد نيويورك في 2001. ما يبدو أن ماك إيوان يحاول تأكيده هنا هو أن اقتحام باكستر ليس فعلا عشوائيا من العنف (الهجوم)، بل هو في الأصل رغبة في الانتقام من الإهانة السابقة. كما يؤكد ماك إيوان، أن هذه الرواية ليست عن ذلك الحدث، "بل عن ظله، وهو يلقي ظلا طويلا، ليس فقط على الشؤون الدولية، ولكن أيضا على التفاصيل الصغيرة في حياتنا"[37]. في هذا السياق، تصبح "السبت" تعبيرا حاسما ليس فقط عن نفسية كاتبها ولكن أيضا عن نفسية الأمة.

---

[35]- Jaouad El Habbouch, op. cit.

[36]- Ibid.

[37]- Mc Ewan, “Conversation: McEwan, by Jeffrey Brown,” The Online NewsHour 13 April 2005, 30 January 2010 <http://www.pbs.org/newshour/bb/entertainment/jan-june05/mcewan_4 13.html>.

بشكل أكثر غموضا، يظهر هنري "بوجه الحمامة مع جيه شتراوس، لكنه لا يتوانى عن إشهار مخالب الصقر أمام ابنته"[38]. بينما تميل حماسة "جيه" للتدخل الأمريكي في العراق به إلى معسكر المؤيدين للحرب، تدفعه آراء "دايزي" المناهضة للحرب إلى تبني مزاج مؤيد للحرب. بشكل ملحوظ، في مواجهة موقف "هنري" الغامض بشأن الحرب على العراق، توفر "السبت" خطابين بديلين من خلال ابنته الشاعرة وابنه الموسيقي. "دايزي" هي ضد التحركات العسكرية للهجوم وتُعرب عن إحباطها من موقف والدها المتردد. في هذه الحالة، يبرز التباين الحاد بين "هنري" باعتباره عقلانيا وابنته باعتبارها شخصية أدبية، مما يسلط الضوء على طبيعة التفكير العلمي العقلاني في عالم ما بعد 11 سبتمبر. في هذه المرحلة، يمكن القول إن "هنري" لا يمثل العلم واليقين بقدر ما يمثل التردد. بالمقابل، تمثل "دايزي" ليس فقط الأدب والشعر، ولكن أيضا الاعتراض المتواصل ضد الحرب على العراق. بمعنى آخر، يكتسب الأدب هنا قيمته ليس كممارسة تعبيرية، ولكن لأنه يمتلك القدرة على تأمين مسافة نقدية.

2-1. الفضاء ما بعد الحداثي للكوارث في رو اية "السبت"

تدور أحداث الرواية في 15 فبراير 2003، عندما سار أكثر من مليوني متظاهر يعارضون الحرب المزمعة في العراق في شوارع لندن، تصور الرواية الكارثة التي تلوح في الأفق مع الجدل حول ما يسمى "صدام الحضارات". في هذا السياق الدولي المتشائم، تُعرض الرواية على نطاق أصغر، أربعة وعشرون ساعة في حياة البطل "هنري"، جراح الأعصاب الناجح الذي يعتزم قضاء يوم مع عائلته التي اجتمعت بعد فترة من التوتر. وهي تعكس الوقائع (الرواية) كحدث كارثي، يستخدم ماك إيوان المجال الخاص لعرض النقاشات السياسية الخاصة بالشخصيات على أنها أشكال من التفاعل في المجال العام. تؤكد الرواية أن احتلال العراق لم يجلب الراحة للمجتمع البريطاني. بل جلب مزيدا من القلق الذي أصبح محاطا أكثر بمخاطر الإرهاب. على المستوى الوطني، يقال: "هناك درجة كبيرة من الدعم والقلق في البلاد إلى جانب الاعتراض"[39]. على المستوى الشخصي، يظهر هنري مواقف متغيرة تجاه الغزو القادم. تجربته مع أستاذ عراقي في التاريخ القديم، الذي تشهد ندوب تعذيبه على وحشية نظام صدام حسين،

[38]- Ian McEwan, Saturday, p 193.

[39]-ibid, P 145.

تعزز رد فعله المتردد تجاه الحرب على العراق. ونتيجة لذلك، يصبح غير متأكد من حكمة هذه الحرب أو جدواها. لا يستطيع هنري أن يقدم أي تصريح واضح بشأن الحرب، بل يصبح غير متأكد مما قد يجلبه التدخل العسكري في العراق بخلاف الإطاحة ب"صدام". يفضل عدم المشاركة في المسيرة، وبديلا عن ذلك ينسحب إلى عالمه الخاص، مستعدا للاجتماع العائلي في المساء. من زاوية أخرى، تقدم الرواية وجهة نظر لتصورات "ثيو"، "الذي يحمل شعورا غامضا بأن كل شيء مرتبط بطريقة ما"[40]. "ثيو" ضد غزو العراق، لكنه ليس جزءا من المسيرة أيضا: "موقفه قوي ونقي مثل عظامه وجلدته، قوي لدرجة أنه لا يشعر بالكثير من الحاجة للمرور عبر الشوارع لإثبات وجهة نظره"[41]. إنه يفضل أن يكون مع المسيرة روحا فقط. يعتقد "ثيو" أن العالم قد يظهر لأبيه ارتباطا بين 11 سبتمبر والمستقبل الذي ينتظر مدينته الجميلة إذا استمر في دعمه المتردد للحرب على العراق. وبالتالي، يبدو أن نهج "ثيو" تجاه الكارثة ليبرالي، حيث إنه مدرك للعواقب الوحشية والأضرار التي قد تجلبها الحرب ضد العراق على الذات والآخر.

2. إنسانية ليبرالية: المعرفة وأخلاقيات الآخر

يُقدّر ماك إيوان قوة الأدب وأهميته في استكشاف الطبيعة البشرية، مع إمكانيته في تعزيز معرفة الإنسان بذاته وبالآخرين. لقد أكد ماك إيوان مرارا بأن "إظهار إمكانية أن تكون شخصا آخر هو الهدف الرئيسي للرواية، حيث يستحث ذلك تعاطفنا مع البشر الآخرين، مما يجعلنا نعي أن الآخرون أحياء مثلنا تماما"[42].

يُصوّر "هنري" ككائن مفرط في العقلانية وغير عاطفي، وهو منجذب إلى الاعتماد على الذات الليبرالية والهيمنة. وفي الوقت نفسه، يشعر بالخوف من أي اختلافات في مدينة لندن المتعددة الثقافات والعرقيات. بمعنى آخر، يبدو أن تراجع الأمة الغربية نحو الانعزالية يمتد إليه بشكل فردي. وهكذا، يعتبر "هنري" الآخر غير طبيعي. يبرر رفضه للتعاطف مع الأشخاص المختلفين خارج دائرة أسرته من خلال قوله إنه إذا وسّع دائرة التعاطف لتشمل الناس البعيدين ليعتبرهم إخوته وأخواته، قد ينتهي به الأمر بتوسيعها لتشمل الحيوانات أو حتى الإرهابيين. على

[40]- Ibid, P 30.

[41]- Ibid, P 151.

[42]- Tammy Amiel-Houser, The ethics of otherness in Ian McEwan's Saturday. "Connotations: A Journal for Critical Debate, vo 21, issue 1, 2011". P 128.

غرار الأمم الغربية، يقول إن "مفتاح نجاح الإنسان وهيمنته هو أن يكون انتقائيا في منح تعاطفه مع الآخرين"[43]. يمكن فهم شعور هنري بالانفصال والعزلة كتجسيد لعنف رمزي. إن عزلته تجاه "الآخر"، سواء من حيث الطبقة أو العرق أو الثقافة، قد تُعتبر مبررا لتهميشهم، وهو ضمن هذه الحالة ليس متسامحا مع الأشخاص من ثقافات أخرى.

قد ترتبط هذا السمة بدقته العلمية، فهي تظهر جانبا آخر من الفشل الخيالي، كما يسميه بول جيلروي في كتابه الحزن ما بعد الاستعماري "خيانة الخيال السياسي للواقع"[44]. بحيث يشير إلى رفض دمج ثقافات أخرى ضمن ثقافة أمته ما يغذي إحساسا قويا بالعنصرية. في الرواية، يربط "هنري" وجهة نظره حول "الآخر" برفض التعددية الثقافية، وعندما يصادف ثلاث نساء مسلمات، يظهر فشلا في تقبله لوجود ثقافات وديانات مختلفة داخل بلده. عندما يلتقي بالنساء المسلمات اللواتي يرتدين الحجاب الأسود، يظهر ترددا في فهم موقفهن الديني: "لا يمكنه إلا أن يشعر بالاشمئزاز، إنه شعور بدني. كم هو محزن أن يُجبر أي شخص على التجول هكذا، وقد تم محوه بالكامل"[45].

يفتقر "هنري" كعقلاني صارم ومؤمن بالمعرفة العلمية والمنهج، إلى التفكير الخيالي، لذلك تبدو الكتابات الخيالية، وفقا له: "شديدة العيوب البشرية، واسعة جدا وغير منتظمة بحيث لا يمكن أن تثير دهشة غير معقدة لجماليات براعة الإنسان"[46]. بعبارة أخرى، يفتقر "هنري" إلى طريقة التفكير الخيالية، ووظيفة العقلانية الصارمة قادته إلى التصرف بطريقة لاأخلاقية. يظهر هذا بوضوح في الرواية، عندما يلتقي مع "باكستر"، حيث يُجبر على استغلال وضعه المتميز، ويعظّم خلفياته الثقافية والاجتماعية في معارضة ثنائية لتلك التي تخص "باكستر". يرفض "هنري" من خلال التصرف بعنف تجاه الآخر المختلف دفع ثمن تعويض تضرر سيارة "باكستر" بعد أن اصطدم معها، وبدلا من إيجاد حلول معه، يرد "هنري" بتجاهل، لينشأ عن ردّ فعله صراعا بسبب موقفه التمييزي ضد الآخر.

---

[43]- Ian McEwan, Saturday, P 127.

[44]- Tammy Amiel-Houser, The ethics of otherness in Ian McEwan's Saturday. Op. cit.

[45]- Ian McEwan, Saturday, P 124.

[46]- Ibid, P 68.

لا يشعر "هنري" فقط بأنه معفى من اللوم والشعور بالذنب تجاه "باكستر"، بل يتقدم ليشرعن العنف الذي يمارسه ضد الفئات المهمشة على مثل "باكستر"، وفي المقابل يدين بشدة العنف المضاد الذي يرتكبه "باكستر". نتيجة لهذا التجاهل واللامبالاة والعنف الرمزي الذي يمارسه "هنري" تجاه "باكستر"، سيحاول هذا الأخير استعادة كرامته. ومن هنا، توظف الرواية حدث اقتحام "باكستر" لمنزل "هنري" الآمن كاستعارة لتقديم قراءة في هجمات 11 سبتمبر على الولايات المتحدة. حسب هذا السياق، يمثل اقتحام "باكستر" لمنزل "هنري" فرصة لاستعادة كرامته ومحاولة إبراز ذاته، "جاء ليستعيد كرامته وربما ليصوغ بنفسه ملامح ذكراه في أذهان الناس"[47]. ضمن هذا الحدث يُعرّض "باكستر"، "هنري" وعائلته لتهديد حقيقي، وعند هذه النقطة، تصل الحبكة إلى ذروتها حيث يدخل "باكستر" و"هنري" وابنه "ثيو" في معركة سيدفعونه إثرها للأسفل على الدرج ويسببون له ضررا.

يشكل تسلّل "باكستر" إلى منزل عائلة "بيرون" فعل مقاومة وانتقام رمزيا من برودة "هنري" وانغماسه في عقلانيته الجامدة، فهذا الحدث يضع "هنري" أمام حقيقة صادمة، وهي أن العلم الذي طالما اعتبره المصدر الأكثر موثوقية لفهم العالم، لم يعُد كافيا أو حتى جديرا بالثقة، بل إن هذا المنهج العقلاني الذي يتشبث به لا يقرّبه من المجتمع، بل يعمّق الهوة بينه وبين الآخرين. وتظهر الرواية أن هذا الاقتحام يحدث زلزالا في موقع "هنري" ومكانته، ويدفعه إلى إعادة النظر في رؤيته الصارمة والعلمية للعالم، إذ لا يجد الخلاص هذه المرة في المنطق أو في خبرته الطبية، بل في الأدب، فدوره كمنقذ ينتقل إلى ابنته "ديزي"، التي تمثّل صوت الأدب، لتصبح هي من يحمل لحظة التحوّل المفصلية في الرواية. تتجرّد "ديزي" من ملابسها -لا فقط كفعل جسدي، بل كتعبير رمزي عن التجرّد والصدق- ثم تتلو قصيدة ماثيو أرنولد "شاطئ دوفر".

إن تلاوتها الشعرية بما تحمله من قوة وجدانية وجمالية، تؤثر بشكل ساحر وعميق في "باكستر"، فتحدث فيه تحولا نفسيا لا تفلح فيه أدوات العلم أو العقل، وهكذا تضيق الهوة بين "هنري" الطبيب المرموق، و"باكستر" الهامشي والمنبوذ. وتعيد الرواية الاعتبار للأدب، الذي لا يلعب هنا دورا جماليا فقط، بل يتحول إلى وسيلة إنقاذ

[47]- Ibid, P 211.

وإلى لحظة خلاص. ومن هذا المنطلق، تتخذ الرواية من قصيدة شاطئ دوفر نقطة ارتكاز فكرية وجمالية، فهي لا تمثل فقط لحظة التحول في الأحداث، بل توظّف أيضا في سياق نقدي يحاكي موقف "أرنولد" نفسه حين وضع الأدب في مواجهة العلم، مبرزا تفوق المنظور الأدبي في استعادة المعنى الإنساني، وتجاوز الجفاف الذي يفرضه التفكير العلمي البحت.

3. السرد الرئيسي وحدود العقلانية

إن الإفراط في اليقين هو خطوة تمهّد لممارسة العنف البنيوي، ومن هذه الفكرة بالذات، يمكن القول إن لا مبالاة "هنري" وازدراءه بالأدب وقوة الخيال، إلى جانب تفضيله للمنهج العقلاني الصارم، تعتبر من الأسباب الجوهرية التي تفسر سلوكه اللاأخلاقي عند مواجهته "لباكستر"، وتظهر تأملات "هنري بيرون" في أعقاب الحادثة جانبا يرى نفسه "يؤدي دورا" داخل "دراما حضرية"[48] تجسد صراعا بدائيا بين الذات والآخر، معركة يكون فيها "أحدهم بصدد فرض إرادته والآخر بصدد الخضوع"[49]. وتعد هذه الرؤية امتدادا للتصور الهيغلي القائم على الثنائية الضدية القائمة على جدلية السيد والعبد[50]، حيث يمثل باكستر "الآخر" الذي لا بد من إخضاعه ليثبت "هنري" هيمنته وتفوقه.

ترتبط السرديات الكبرى أساسا بالأخلاق، إذ تقدم تصورات ثقافية جمعية حول ماهية الحياة الجيدة، وقد عرّفها ماكلين وسيد كونها "قصص ثقافية مشتركة توجه التفكير والمعتقدات والقيم والسلوكيات"[51]. وتشكل هذه السرديات إطارا مرجعيا لرواية الذات، وللاندماج ضمن تصور ثقافي معيّن للنجاح والانتماء[52]. وفقا لهذا السياق يستحضر "فارغاس" حوارا شاهده على قناة "بي بي سي" بين "بيل مويرز" و"توني موريسون" حول روايتها "العين الزرقاء"، حيث تعرّف موريسون "السردية الكبرى" بأنها "السيناريو الإيديولوجي الذي يفرضه أصحاب الهيمنة على

---

[48]- Ibid, P 86.

[49]- https://www.macfound.org/press/perspectives/challenging-master-narrative.

[50]- أنظر: فردريش هيغل، فنومينولوجيا الرّوح، ترجمة وتقديم، ناجي العونلّي. (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية/ المنظمة العربية للترجمة، 2006).

[51]- (McLean & Syed, 2015, p. 323).

[52] -Syed, Moin, Monisha Pasupathi, and Kate C. McLean. "Master narratives, ethics, and morality." (2018).

الجميع"[53]، وتضيف بأن "التاريخ بوصفه سردية كبرى يمتلك زاوية نظر محددة"[54]. بيد أنه رغم ارتباط السردية الكبرى بالسلطة والهيمنة، فإنها ليست حكرا على النخب الثقافية، بل تصاغ وتعاد صياغتها من قبَل الجميع.

وتقوم فكرة السردية الكبرى على تصور تكاملي لتطور الإنسان، قائم على أن الأفراد والمجتمعات يشكّلون بعضهم البعض من خلال تفاعل ديناميكي مع نظام الرموز والمعاني المضمنة في اللغة، ضمن أشكالها السردية. تُظهر رواية "السبت" حرص ماك إيوان على إبراز قيمة الأدب والتنديد بالعقلانية الجامدة، عبر شخصية "هنري بيرون" التي يجسّد بها صورة العقلاني البارد. يحاول ماك إيوان تسليط الضوء على حدود المنهج العقلاني، ف"هنري" يؤمن بأن أجمل لحظات الحياة تبنى على يقين عقلي صارم، لكن من خلال تسليط الضوء على محدودية هذه النظرة، يحاول ماك إيوان كشف خوائها الأخلاقي والوجودي.

كما تقدم الرواية ضمنيا نقدا للرؤية الهيغلية للعالم، وتحاول تقويض "الآخر" بوصفه محل شك وموضع تهديد، بواسطة استلهام مثالية "ماثيو أرنولد" الثقافية وتقديره للأدب كنقطة ارتكاز، إضافة إلى ذلك، تحاول أن تبيّن بأن عقلانية "هنري" قد تشرعن للعنف العالمي، وخصوصا الحرب التي شنّتها الولايات المتحدة وحلفاؤها ضد العراق، لذلك فالعقلانية الجافة تجعل من السهل ممارسة العنف ضد "الآخر"، خاصة إذا لم يكن هناك تقاطع ثقافي أو عرقي أو ديني معه، مما يؤدي إلى أفعال غير مصحوبة بإحساس بالذنب.

ومن هذا المنظور، يمكن قراءة المقاربة الأخلاقية في رواية ماك إيوان لأحداث ما بعد 11 سبتمبر بوصفها تأكيدا على قوة الخيال والتعاطف في وجه الإرهاب. بل إن هذه الرؤية قد تمنحنا بصيص أمل في المستقبل، رغم فشل الشخصيات في اتخاذ موقف سياسي واضح ضد الحرب على العراق، فالرواية في جوهرها تنحو إلى تفكيك السردية العسكرية التي صاغها الغرب ضد الإرهاب، مشيرة إلى أن العنف لا يفضي إلا إلى مزيد من العنف، وأن الأدب والخيال هما السبيل إلى تجاوز المضي في حلقة العنف المفرغة.

خاتمة

[53]- https://www.macfound.org/press/perspectives/challenging-master-narrative

[54]- Ibid.

كان مثيرا جدّا أن حقبة سقوط الاتحاد السوفياتي، هي نفسها حقبة صعود القوة العظمى في العالم -الولايات المتحدة الأمريكية-. لكن الأدعى إلى الإثارة أكثر، هو أن المشروع ما بعد الاستعماري الذي أسست له الولايات المتحدة، أنتج سرديات كبرى جسّدتها العولمة، إذ تمّت رعايتها بدعم مادي وسياسي وفكري واقتصادي. وأصبح معها البعد الأخلاقي متجاوزا، وما كاد أن يمرّ على هذه التجربة عقد من الزمن، حتى انصدمت بأحداث 11 سبتمبر. لا يشبه تلك الاندفاعة غير المحسوبة العواقب، سوى الرغبة في لفت الانتباه إلى أن غربة الآخر في سياق السرديات الكبرى غير مقبولة. وهكذا، لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها قد طوت صفحة الثنائية القطبية، حتى فتحت صفحة صدام أخرى معها بصيغة جديدة.

حوّلت هذه اللحظة المفصلية نظرة الكُتّاب الغربيين اتجاه الآخر، وسرعان ما تهيأت الشروط لإنتاج معرفة تؤمن بأن لا التعميم ولا الإطلاقية يُفلحان في استيعاب الآخر وقولبته. بل إن التعامل مع الآخر يجب أن ينبني على خيارات أخلاقية بدرجة أولى، وليس سياسية. حمل ردّ الفعل المتمثّل في 11 سبتمبر حالة من الحزن لدى المجتمع العولمي، أطلق عليه "الحزن ما بعد الاستعماري". نجح الخيال السياسي في الأدب في إنتاج اعتراف بالآخر، ذلك أن مثالية الأدب تمتلك القدرة على تفسير حياتنا بأبعاد إبداعية، وتمنح إمكانية إحداث تخييل متميّز للسياسة لا قيود له. إن عمل ماك إيوان نجح بشكل جيّد في تخيّل إمكانية التسوية والتوافق بين منظومات متعارضة، كانت مركبة ولكن جدلية منصهرة في خطاب جديد، وهو عين ما يميّز دراسة السياسة بالأدب.